﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

إقامةُ الدَّليلِ على عظيمِ الظُّلمِ المُتحقَّقِ بالشِّركِ

لمّا ذَكرَ النَّظمُ الجليل فِسقَ إبليسَ، ووبَّخَ مَن يتَّخذُه وأتباعَه - مع عداوته - وليًّا من دون الله تعالى، يعبدونَه، ويطيعونَه ظُلمًا وكُفرًا؛ بيَّن أنَّهم لا يستحقّون تلك العبادةَ بحالٍ منَ الأحوال، فساقَ ما يدلُّ على كمال قُدرته وعجزِ إبليسَ وأتباعِه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ تعليلًا للذَّمِّ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ للدَّلالة على حقارتِهم ودُنوِّهم عن مقام الإلهيَّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ[2]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المُشاهَدَة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقوله تعالى: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ [النّمل: 49]، أي: ما حضرنا، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: 72]، أي: لا يحضرونَه بنفوسِهم ولا بهمِّهم وإرادتِهم، وقولُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الكهف: 51]، أي: ما جعلتُهم ممَّن اطَّلعوا ببصيرتِهم على خلقِها[3]، والمشاهدة: المعاينةُ، وشهده شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: نفيُ كونِهم حاضرين لمشاهدة الخَلْقِ والمشاركةِ فيه، أوِ الإعانةِ عليه[5].

2) ﴿عَضُدٗا﴾: (عضد) أَصْلٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ مِنَ الأَعْضاءِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 535.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

يُستَعارُ في مَوْضِعِ القوَّةِ والمُعين[1]، والعَضُد: ما بين المِرفقِ إلى الكتف، ويقال: عَضَدْتُهُ: أخذتُ عَضُدَه وقوّيتُه، ويُستعارُ العَضُدُ للمُعين كاليد، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[2]، وعَضَدْتُهُ أعْضُدُهُ بالضَّمِّ: أعَنْتُهُ، واعْتَضَدْتُ بفلان، أي: استعنتُ به[3]، والعَضُدُ: القوَّةُ؛ لأنَّ الإنسان إنَّما يَقْوى بعَضُدِه، فسُمّيَت القوَّةُ به، وقولُه تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: 35]، أي: سَنُعينُكَ بأخيك، وكُلُّ مُعين، فهو عَضُدٌ، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، عَضُدُ الرجلِ: أنصارُه وأعوانُه، والاعْتِضادُ: التَّقَوّي والاسْتِعانَةُ، وفُلانٌ يَعْضُدُ فُلانًا، أي: يُعينُه[4]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: أعوانًا في الخَلْقِ أو في شأنٍ من شؤوني[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يليقُ بالكمالِ الإلهيِّ اتِّخاذُ أهلِ الزَّيغِ أعوانًا

يُخبرُ اللّه تعالى بأنَّه لم يُشْهِد إبليسَ ولا ذرِّيَّتَهُ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ، ولا استعان بهم على خلقِهما، فلا يليقُ بالكمالِ الإلهيِّ أنْ يتَّخذَ أهلَ الإضلال أعوانًا، فيُشْرِكَهم في الإنشاء، ولا أن يُشْهِد بعضَهم على خَلْق بعضٍ، ولا أن يتَّخذَ المُضلّين مِنَ الشياطين وغيرِهم أعوانًا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الموقعُ البيانيُّ للجملةِ في صدرِ الآية:

الاستدلالُ بالخلقِ على استحقاقِ العبادةِ نفيًا وإثباتًا

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ استئنافيَّةٌ جيءَ بها لبيانِ كمالِ علمِه وقدرتِه وتفرُّدِه بالخَلْق، وهو استئنافٌ تعليليٌّ مسوقٌ لبيانِ عدمِ استحقاقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضد).
(2) الرّاغب، المفردات: (عضد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (عضد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عضد).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 344، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 299.

إبليسَ وذريَّتِه الاتِّخاذَ المَذكورَ؛ فإنَّهم لمّا لم يكونوا حاضرين خَلْقَ السّماوات والأرض، فإنَّ ذلك يَعني أنَّهم ليسوا شركاءَ للّه تعالى في الخَلْقِ، وهذا يَدلُّ على انتفاءِ استحقاقِهم العبادةَ[1].

الغرضُ من نفي الإشهادِ في خلْقِ السَّماوات:

انتفاءُ المشاركةِ في الخَلْقِ أبلغُ دليلٍ على انتفاءِ استحقاقِ العبادةِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بنفي إشهادِ إبليسَ وذرّيَّتِه خلْقَ السَّماوات والأرض في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على عدمِ حضورِهم ذلك الحدثَ العظيمَ، أي: ما أحضَرْتُهم[2]، والمرادُ به الكنايةُ عن إحضارٍ خاصٍّ، وهو الإحضارُ لأجل المشاركةِ والمعاونةِ في الخَلْق، فلمّا نفَى الشُّهودَ؛ اقتضى ذلك نفيَ الحضور، ومن ثَمَّ نفْيَ المشاركةِ في الخَلْق، فانتفتْ عنهم صفةُ الإلَهيَّةِ بالأَوْلى؛ إذ إنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرض سابقٌ على خلقِهم ووجودِهم، فالمرادُ من هذا الاستدلالِ نفيُ استحقاق الولايةِ والعبادةِ والإلَهيَّةِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

المُتفرِّدُ بالخَلْقِ هو الجديرُ بالعبادةِ حضْرًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ ﴿خَلْقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ للاستدلال به على انتفاءِ صفةِ الولايةِ عنهم، فالتَّعبيرُ بخلق السَّماوات والأرض يدلُّ على تفرُّدِ اللّه تعالى بالخَلْق والقدرة[4]، وهذه مُحاجَّةٌ للمشركين بأنَّ الإله والوليَّ الحقَّ هو الذي خلق الوجودَ مُتفرِّدًا، فأنّى يكونُ له شريكٌ؟ تعالى اللّه عمّا يَصِفون، وقد أضاف لفظَ الخلقِ إلى السَّماوات تأكيدًا لقوَّة الاستدلالِ؛ لأنَّ السَّماواتِ أعظمُ المخلوقاتِ، فأفاد ذلك قطعَ كلِّ جدالٍ، وذلك بإيرادِ ما لا يمكنُ دفعُه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342 - 343.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 536.

والاعتراضُ عليه، فإنَّهم لا يجادلون في كوْنِ الله تعالى هو خالقَ السَّماوات والأرض على وجه التَّفرُّد، فالاستدلالُ بالخلق المضافِ إليهما هو غايةُ الاستدلال وأقواهُ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ذِكْرُ الأرضِ بعدَ السَّماواتِ تأكيدٌ للاستدلالِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الأرضَ على السَّماوات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ تفخيمًا لشأن الأرض، إذ هي موطنُ الإنسان، فعَطْفُها على السَّماوات أشركَها في الاستدلال على تفرُّدِه تعالى بالخلقِ، بإيراد أعظمِ المخلوقات، ممّا يَنفي عنِ الشُّركاء الصِّفةَ التي تستوجبُ العبادةَ.

دلالةُ عطفِ خلقِ الأنفسِ على خلق السَّماواتِ والأرض:

انتفاءُ قُدرتِهم على الخلقِ، وإثباتُ كونِهم مخلوقين، دحضٌ لمزاعمِ المُشركين

عطفَ النَّظمُ الجليل الخَلْقَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ على الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إيغالًا في الاستدلالِ على انتفاءِ استحقاقِهمُ الولايةَ والعبادةَ مِن دون الله تعالى، فلمّا نفَى إشهادَهم خلْقَ السّماوات والأرض للدَّلالة على تفرُّدِ الله تعالى بخلْقِهما؛ عطفَ على ذلك انتفاءَ إشهادِهم خلْقَ أنفسِهم؛ تأكيدًا لانتفاء استحقاقِ الولايةِ عنهم، فهو يشيرُ إلى أنَّهم مخلوقون، فهم مثلُكم - أيُّها المُشركون - مخلوقون، كما أنتم مخلوقون، ولا يصحُّ في حُكم العقلاءِ أن يكون المخلوقُ شريكًا لخالقِه أصلًا[1]، ولا أن يكونَ المخلوقُ عابدًا لمخلوقٍ مثلِه.

نُكْتةُ التَّرتيبِ في ذكرِ المخلوقاتِ:

مِن حُسنِ إيرادِ الأشياءِ ترتيبُها وفْقَ نسقٍ كالأسبقيَّةِ

رتَّبَ النَّظمُ الجليلُ ذِكْرَ المخلوقاتِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾، فبدأ بخلْقِ السَّماوات والأرض، وخلقُهما سابق على خلق النّاس، فرتَّبَهما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

بحسب رُتبةِ الخلْقِ بزمن الإيجادِ، فبدأ بالمخلوق أوَّلًا، وختمَ بالمخلوق مُتأخِّرًا منَ المذكوراتِ[1].

دلالةُ عطفِ الجملة:

تَفرُّدُ اللهِ تعالى بالخَلْقِ لا يُحوِجُه إلى مُعينٍ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿*مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ مضمونِ الجملةِ الأولى منَ الدَّلالة على تفرُّدِ اللهِ تعالى بالخلْقِ والقُدرةِ والعِلْمِ[3]، فلم يُشهِدْهم اللهُ تعالى الخلْقَ الأوَّلَ، فخَلَقَه وحدَه تعالى، ولم يكن مُحتاجًا لمُعينٍ، فلمّا نفىَ إحضارَهم؛ نفَى الحاجةَ إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ نفْيِ فعلِ الكوْنِ:

انتفاءُ الحاجةِ للمُعينِ أزليٌّ أبديٌّ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأسلوبِ نفْيِ الكوْنِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ دون أن يقول: (وما اتّخذتهم عضدًا)؛ للدَّلالة على تأكيدِ النَّفي، وكوْنِ المنفيِّ - وهو اتِّخاذُهم أعوانًا - لم يكن موجودًا في الأزلِ والأبدِ[4]، فاللهُ تعالى لكمالِ قُدرته ليس بحاجةٍ لمُعينٍ في الخَلْق أو في شأن مِن شؤونِه تعالى، فانتفى الاتِّخاذُ انتفاءً منَ الأصل.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمفعولِ به مضافًا إلى المُضلّين:

لا يُستعانُ بالمُضلِّ، ولا يُؤسَفُ على إعراضِ أحدٍ عنِ الإيمانِ

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿مُتَّخِذَ﴾ إلى ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ للدَّلالة على أنَّ المُضِلَّ لا يُستعانُ به؛ لأنَّه مع عدم نفعِه يَضرُّ، وفي ذلك إرشادٌ للنّاس بالامتناعِ عنِ الاستعانة بالمُضلّين وأتباعِهم، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّه لا ينبغي أن يُؤسَفَ على فوات إسلامِ أحدٍ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 229.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 206.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 536.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

قد هدى مَن عَلِمَ فيه خيرًا، ومَن لم يهتدِ؛ فهو مضلٌّ لا نفعَ فيه لنصرة الدّين[1].

الغرَضُ من وضْعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ:

من اتَّصف بالضَّلال لا تصحُّ الاستعانةُ به

وضعَ النَّظمُ الجليلُ الاسمَ الظّاهرَ ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ بدلَ الضَّميرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾، فلم يقل: (وما كنت متَّخذهم عضدًا)؛ وذلك لبيانِ وصفِهم الحقيقيِّ[2]، ولذمِّهم بهذا الوصفِ، فإنَّه سجَّلَ عليهم صفةَ الضَّلال، إرشادًا للنّاس للانصرافِ عنهم، وتنبيهًا على أنَّ مَنِ اتَّصف بالضَّلال لا تصحُّ الاستعانةُ به، وإظهارُ الصِّفةِ يؤكِّدُ إنكارَ اتِّخاذهم أولياءَ في سابق الذِّكر في قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُۢۚ﴾[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ بالتَّعبيرِ بالعضُد:

تشبيهُ المُعينِ بالعَضُدِ بجامع الإسنادِ والمعاونةِ

استعارَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ العَضُدِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ للدَّلالةِ على المُعين؛ إذ شبَّه المُعينَ بالعَضُدِ بجامع الإسنادِ والمعاونةِ، أي: ما اتَّخذتُ المُضلّين مُعينًا كما يُعينُ العَضُدُ اليدَ، فالعضُد اسمٌ جامدٌ استُعملَ للدَّلالة على الوصفِ[4]، والاستعارةُ أصليَّةٌ تصريحيَّةٌ؛ لأنَّ المشبَّهَ به مصرَّحٌ به، وهو اسمٌ جامدٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77 - 78.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4544.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»